شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي -رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٢٦)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى: [حدثنا علي بن المديني قال: أنبأنا سفيان قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة، عن كريب، عن ابن عباس، عن جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار { أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم من عندها، فخرج وهي في المسجد ثم رجع بعدما تعالى النهار، فقال: ما زلت في مجلسك هذا منذ خرجت بعد؟ قلت: نعم، فقال: لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزن بكلماتك وزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته }].

نعم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد تقدم الكلام ليلة البارحة على إثبات صفة الكلام لله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى يتكلم بكلام حقيقي لا يشبه كلام المخلوقين، وأنه يتكلم بحرف وصوت، وأن كلامه متعلق بمشيئته، فهو قديم النوع حادث الآحاد، وأن من دلائل كلامه سبحانه وتعالى وقدمه وتجدده أنه مرتبط بفعله، فالله سبحانه وتعالى فَعَّال لما يريد، فكما أنه سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال فعالاً فهو لم يزل ولا يزال متكلماً، إذ أن فعله بكلامه، ((إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))[النحل: ٤٠]، فلما كان سبحانه وبحمده يخلق بكلامه وهو لم يزل خلاقاً فعالاً كان ذلك دليلاً على أنه لم يزل متكلماً.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ - حفظه الله -

وتبين لنا مذاهب الضالين في هذا الباب ممن هم من غير أهل القبلة ومن أهل القبلة، وأنهم جميعاً ضلوا سواء السبيل على تفاوت بينهم.

وأن مقالة الصفاتية من السالمية والأشعرية والكُلابية، مقالتهم في الحقيقة قريبة من مقالة المعتزلة، فإن المعتزلة أثبتوا كلاماً لله مخلوقاً، أضافه إلى نفسه إضافة تشريف، كما يضيف البيت فيقول بيت الله أو ناقة الله أو عبد الله ونحو ذلك، فهي إضافة تشريف، قالوا أيضاً كلام الله هذه إضافة تشريف من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

وأن المتأمل في كلام هؤلاء الكلابية والأشاعرة يرى أنه في النهاية يؤول إلى كلام المعتزلة، إذ أنهم جعلوا الحروف والأصوات المسموعة مخلوقة، إذ قالوا: خلق كلاماً في الشجرة، أو خلق حروفاً وأصواتاً في الشجرة سمعها موسى تعبر عن كلام الله أو تحكي كلام الله، أو خلق حروفاً وأصواتاً في جو الجنة، سمعها الأبوان لتعبر عن كلام الله أو تحكي كلام الله، فصار هذا المسموع مخلوقاً عندهم، وإنما ... القديم هو المعنى القائم في نفسه، هكذا، ولهذا قال بعض حذاقهم: إنما مقالتنا تؤول إلى مقالة المعتزلة، وهذا هو الواقع، و ... في هذا إبطالهم للصفات الفعلية، فإنهم حينما امتنع عندهم في عقولهم أن الله تعالى يفعل الشيء متى شاء، منعوا صفة الكلام ومنعوا كل وصف فعلي لله عز وجل، ظناً أن هذا يستلزم حصول حوادث، وهو وإن كان فيه حدوث لكنه حدوث لا منقصة فيه، إذ أن أصل الصفة قائمة بالرب عز وجل، وإنما الذي جد آحادها وأفرادها، وهذا هو معنى قولنا: قديم النوع حادث الآحاد، أو صفة ذاتية باعتبار أصله وصفة فعلية باعتبار آحاده وأفراده، فبهذا يرتفع الإشكال، ومن طرد قولهم أنهم جعلوا كلام الله معنى واحداً، فلا يفرقون بين الخبر والاستخبار، والأمر والنهي، ولا يفاضلون بين كلام الله بعضه مع بعض.

والحقيقة أن كلام الله تعالى منه ما هو خبر ومنه ما هو استخبار ومنه ما هو نهي، ولا يلزم على هذا أي لوازم فاسدة، وإنما القوم يفترضون لوازم فاسدة وهي ليست كذلك، فالله تعالى يأمر وينهى ويخبر سبحانه وتعالى، ويأتي الكلام بصيغة الاستخبار، وصيغة الاستفهام التقريري والإنكاري وغير ذلك، كما أن كلام الله تعالى يتفاضل، فبعض سور القرآن أفضل من بعض، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأُبَي بن كعب رضي الله عنه: قال: { أي آية في كتاب الله أفضل }، أفَهُم أغير على كلام الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

فيتبين بهذا أن المقدمات الفاسدة هي التي تفضي إلى النتائج الفاسدة، وأن من اعتصم بالكتاب والسنة وقاه الله تعالى وعصمه وألزمه كلمة التقوى. وهذا الحديث حديث جويرية حديث صحيح، والشاهد منه قوله: { ومداد كلماته }، فأثبت الكلمات لله تعالى وهذا إثبات لصفة الكلام. ثم قال.

[قال: حدثنا نعيم بن حماد قال: حدثنا ابن المبارك، قال: أنبأنا يونس عن الزهري، قال: أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: { يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ }].

نعم، هذا حديث متفق عليه، والشاهد منه قوله: { ثم يقول }، ثم أيضاً أنه يمكن أن نستنبط من هذا فائدة أخرى، وهو أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بحروف وأصوات، لأن جملة مقول القول مؤلفة من حروف وأصوات، فإذا قال: ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض، فهذه جملة مقول القول، فجملة مقول القول هي حروف وأصوات، فدل ذلك على إثبات الحرف والصوت على ما يليق بجلال الله عز وجل.

واعلموا يا إخوة أن الكلام لا يكون كلاماً إلا بهذا، ولا يمكن أن يكون الكلام فقط بالمعنى وحده، وإنما بمجموع الأمرين، بالمعنى والصوت، وهؤلاء قد شبهوا ببيت للأخطل النصراني، أرادوا أن يدللوا فيه على أن الكلام هو المعنى فقط، فإنه مما يُنسب إلى الأخطل النصراني وهو من بني تغلب الذين بقوا على نصرانيتهم، قوله:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً

قالوا: هذا دليل على أن الكلام يكون في الفؤاد، قال:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً

والواقع أنه لو أراد أحد أن يحاققهم لقال إن بيت الأخطل النصراني دليل لكم لا عليكم، فإن الأخطل النصراني قد جعل مجموع الكلام مما يكون في القلب ويعبر عنه اللسان، فهو دليل عليه لا يمكن أن يُعرف ولا يُعرب إلا بنطق اللسان له، فالكلام إذاً تحصل من مجموع الأمرين، من المعنى الذي في القلب ومن اللفظ الذي ينطق به اللسان، ثم على فرض أن الأمر كما ذكرتم، فإن هذا لا يُحتج به على كلام الله ولا على كلام رسوله صلى الله عليه وسلم، كيف يستشهد ببيت من الشعر لرد آية محكمة أو سنة ثابتة؟ ثم فوق

ذلك يقال أيضاً: إن الأخطل النصراني نصراني، والنصارى عندهم كلمة في قضية الكلمة، وإنما اختلفوا هذا الاختلاف العريض في عيسى ابن مريم عليه السلام بسبب الكلمة، حتى ظنوا أن خلق الله تعالى لعيسى بالكلمة يقتضي أن يكون الله حل فيه، وزعموا بأن عيسى عليه السلام فيه جزء ناسوتي وجزء لاهوتي، فهم مختلفون في مسألة الكلمة وضالون فيها، فكيف يُستند أو يُستشهد بأقوالهم في هذا المقام؟

ثم قال.

[قال: حدثنا أبو عمر الحوضي قال: حدثنا شعبة، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن خرشة بن الحر، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: { ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم، قال: قلت: من هم؟ خابوا وخسروا، قال: فأعادها ثلاثاً، فقلت: من هم ؟ خابوا وخسروا، قال: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته }].

والمُنَفِّق.

[{ والمُنَفِّق سلعته بالحلف الكاذب، أو الفاجر }].

نعوذ بالله، أما وجه الدلالة فقوله: { لا يكلمهم }، ولا يقولن قائل هذا نفي فكيف يُستدل به على الإثبات، يقال إنه ما نفى التكليم عن هؤلاء في السخط إلا لأنه يكلم أوليائه في الرضا، فلا يقال لا يكلمهم إلا دليل على وجود أصل الصفة، فإنما نفاها عن فئة أو عن أصناف معينة، فدل ذلك على ثبوتها في غيرهم من أوليائه، فهذا دليل تكليمه لأوليائه، فدل على إثبات صفة الكلام لله يوم القيامة.

قال عن هؤلاء الثلاثة أعاذنا الله وإياكم من حالهم: { لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم }، يعني لا ينظر إليهم نظر الرضا، وإلا فإنه لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، { ولهم عذاب أليم }، لأجل ذا قال أبو ذر: من هم؟ خابوا وخسروا، إي والله قد خابوا وخسروا من كان هذا حالهم، لا يُكلَّمون ولا يُزكَّون ولا يُنظر إليهم، لا ينظر الله إليهم ولهم عذاب أليم، فأعادها ثلاثاً، وهذا من باب تعظيم الشيء، فذكرهم أحدهم المسبل، والمسبل هو الذي يجر إزاره، وقد حَدَّه النبي صلى الله عليه وسلم بالنزول عن الكعبين، فالإسبال يكون نبأن ينزل الثوب أو القميص عن الكعبين، { ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار }، المسبل.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

ولكون ذلك دلالة على الكبرياء، فإن الذي يجر إزاره يعطي هذا معنى الكبر والتيه والفخر، والله لا يحب كل مختال فخور، وقد { كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لبس الإزار يبلغ نصف ساقه }، وقال: { أُزرة المؤمن من أنصاف ساقيه إلى كعبيه }، أو كما قال صلى الله عليه وسلم. ولا يقال إن هذا يختص بمن جره خُيلاء، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد فرق بين من جره خيلاء، فقال: { من جر ثوبه خيلاء } فكذا وكذا، وبين من أنزله عن حد الكعب فقال في جزائه إنه: { ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار }، واختلاف الجزائَين يدل على أن كلاهما محرم، فلا يُحمل أحدهما على الآخر ويقال للمرء أن يجر إزاره إذا لم يكن خُيلاء، لا، بل كلاهما ممنوع وأحدهما أشد من الآخر، فمن جر ثوبه خيلاء فله هذا العذاب الأليم، أنه لا يكلمه الله يوم القيامة ولا يزكيه ولا ينظر إليه وله عذاب أليم، ومن لم يجره خيلاء ولكنه نزل عن حد الكعب فإنه يُعذب بقدر ما نزل، فلو نزل عن حد الكعب بمقدار سنتي متر واحد عُذِّب منه هذا المقدار، ويمكن أن يقع العذاب على جزء من البدن، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: { ويل للأعقاب من النار }، كما أنه يمكن أن يُحفظ بعض أجزاء البدن، كما أن الله تعالى حرم على النار أن تمس مواضع الوضوء أو مواضع السجود من ابن آدم، فهذا كله ممكن والله على كل شيء قدير.

أما المنان فهو الذي يمن بعطيته، وقد قال الله تعالى: ((وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ))[المدثر:٦]، وقال: ((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى))[البقرة:٢٦٤]، بأن يعطي ثم يذكر صاحبه كلما لقيه: أنسيت أني أعطيتك كذا؟ يمن عليه، فهذا خلق ذميم، ومَسلك وَبِيء هذا جزاءه.

والمنَفِّق سلعته بالحلف الكاذب أو الفاجر، الذي أراد أن يروج بضاعته أخذ يحلف الأيمان بأنه أُعطي فيها كذا أو أنه يصفها بما ليس فيها، كل هذه الأشياء قد تبدو لنا أيها الإخوة أنها ليست ذات بال، ولكن انظروا ماذا رتب النبي صلى الله عليه وسلم عليها من العقوبة، عافان الله وإياكم. ثم قال.

[قال: حدثنا محبوب بن موسى الأنطاكي قال: أنبأنا أبو إسحاق عن أبي حماد يعني الحنفي، قال أبو إسحاق: وكان من أوثق أهل زمانه، عن ابن عقيل وهو عبد الله بن محمد بن عقيل قال: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: { صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء كلهم يوم أحد، فرجعت وأنا مثقل، قد ترك أبي علي ديناً وعيالاً، فلما كان عند الليل أرسل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا جابر،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

إن الله قد أحيا أباك وكلمه، قال: قلت: وكلمه كلاماً؟ قال: وكلمه كلاماً، فقال له: تمن، قال: أتمنى أن ترد روحي، وتنشر خلقي كما كان، وترجعني إلى نبيك، فأقاتل في سبيلك، فأقتل مرة أخرى }].

ماذا قال عنه؟ إيه تقدم لكن فيما مضى، هو مر بنا حديث جابر، رمز له بالحُسن. أما قوله: قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء كلهم يوم أحد، هل يصلى على الشهيد؟ هاه؟ إيه، الظاهر هذا، أن المقصود دعا لهم، وإلا فإن الشهيد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: { كفى ببارقة السيف على رأسه شفاعة }، لأن المقصود بالصلاة على الميت الشفاعة له، شفاعة إخوانه المؤمنين له بأن يُغفر له، فبين النبي صلى الله عليه وسلم بان بارقة السيف على رأسه تكفيه شفاعة، فالشهيد لا يصلى عليه، وإنما يُكفن في ثيابه التي عليها جراحه، وإنما يزال عنه الحديد، ويُدفن فيها ولا يصلى عليه، فإذاً يكون المقصود بـــ(صلى) هنا دعا، فقد دعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم، بل حتى بعد دفنهم كان يخرج ويدعو لهم ولأهل بقيع الغرقد. ثم قال.

[قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة قال: حدثنا جرير عن ليث، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، قال: قال عمر رضي الله عنه: إن هذا القرآن كلام الله، فلا أعرفنكم ما عطفتموه على أهوائكم، إلا أن يكفر به عبد عمد عين].

إيه، هذا رمز له بالضعف كذلك، طيب يقول: إن هذا القرآن كلام الله، وهذا هو موضع الشاهد من إيراده، فلا أعرفنكم ما عطفتموه على أهوائكم، إلا أن يكفر به عبد عمد عين ... لكن قال: فلا أعرفنكم ما عطفتموه على أهوائكم، يعني كأنه يتوعدهم أو يهددهم بأن لا يحملوه على ما تقتضيه أهوائهم، وأن هذا يعني موجب كفر، لعل هذا معناه. نعم.

[قال: حدثنا موسى بن إسماعيل قال: حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: هدي وكلام، فخير الكلام كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم].

نعم، رمز له بالصحة، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: هدي وكلام، يعني إن هما إلا أمران، هدي وكلام، فخير الكلام كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد، يعني أن الحق يكون بالقول وبالفعل، فأما القول فهو الكلام، وخير الكلام كلام الله، وأما الهدي فيراد به الفعل والسلوك وهو ما كان عليه النبي صلى الله

عليه وسلم، وهذا يأتي في الخُطَب، كما في إن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها. نعم.

[قال: حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي أبو سعيد، قال: حدثنا أحمد بن بشر، قال: حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن مسروق، أن عبد الله قال: القرآن كلام الله، فمن قال فيه فليعلم ما يقول، فإنما يقول على الله].

نعم، أشار له بالضعف كذلك، أما المعنى فإنه معنى تواتر عليه السلف، وهو تعظيم القول في كلام الله، حتى كانوا يتدافعون التفسير، كانوا يتدافعون تفسير كلام الله يقولون: القول على الله عظيم، وإنما أورده المؤلف هنا لجملة القرآن كلام الله. نعم. هاه؟ رمز له بالضعف؟ إيه، عندي رمز له بالصحة، بل قال: هذا أثر صحيح. طيب. ثم قال.

[قال: حدثنا أحمد بن صالح المصري، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس، عن ابن شهاب، قال: أخبرني علي بن حسين أن ابن عباس قال: أخبرني رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار، { أنهم بينا هم جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة عظيم ومات عظيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا حياة أحد، ولكنما ربنا إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم يسبح أهل السماء الذين يلونهم، ثم يسبح الذين يلونهم، حتى بلغ التسبيح أهل السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش: ما قال ربكم؟ فيخبرونهم بتسبيح أهل السماوات، حتى يبلغ الخبر أهل هذه السماء الدنيا، فيتخطف الجن السمع، فيذهبون به إلى أوليائهم، فإذا جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يرقون فيه يعني يَقْرِفون }].

يَقرفون هكذا؟ يقول: قوله: ولكنهم يُرَقُّون فيه، قال القاضي: ضبطناه عن شيوخنا بضم الياء وفتح الراء وتشديد القاف، يُرَقُّون، ورواه بعضهم بفتح الياء وسكون الراء، يَرْقون، وفتح القاف، بمعنى يزيدون، يقال رَقَّى فلان إلى الباطل، وأصله من الصعود، أي يدعون فيه غير ما سمعوا، انتهى من شرح مسلم، وكأن هذا المعنى الثاني أليق بالحديث ودلت عليه أيضاً أحاديث أُخر، أو ما جاء في شرح سفيان بن عيينة أنه يضيف

إليها تسعاً وتسعين كذبة، فيقال أليس قد قال كذا وكذا، وهذا حديث وجه دلالته ما ذُكر من تَكَلُّم الله سبحانه وتعالى، إذ أن معنى قوله: قضى، يعني تكلم بأمر من الأمور، ولهذا قالوا: ما قال ربكم.

وقصة هذا أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فرمي بنجم فاستنار كما يقع دوماً عند رؤية الشهب، فذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم عما كانوا يقولونه في الجاهلية، فكأن القوم لأدبهم قالوا: الله ورسوله أعلم، ثم أجابوه وقالوا أنهم كانوا يقولون: ولد الليلة عظيم أو مات عظيم، وكل هذا من أمر الجاهلية التي تقوم على دعاوى باطلة لا ارتباط فيها بين الأمر وما ادعي معه، فصحح النبي صلى الله عليه وسلم هذا، وقال: { إنه لا يرمى بها لموت أحد ولا حياة أحد }، كما أن الشمس لا تنكسف لموت أحد ولا لحياته، وبين لهم سبب الرمي بالشهب، وأنه يكون رجوماً للشياطين كما جاء بذلك ناطق الكتاب، ((رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ))[الملك:٥].

وأن الله سبحانه وتعالى إذا قضى الأمر سبح حملة العرش، ثم يسبح من بعدهم إلى أن يبلغ ملائكة السماء الدنيا، ثم لم يزل يسأل بعضهم بعضاً عما قاله الله سبحانه وتعالى، حتى تبلغ المقالة إلى ملائكة السماء الدنيا، فيكون الجن الذين يسترقون السمع يتخطفون الكلمة، وقد وصف سفيان كيف صعود بعضهم على بعض، فيخطف الأعلى الكلمة ويترلها إلى من تحته، فربما أدركه الشهاب فأحرقه وربما وصل بها إلى أذن الكاهن، فإذا سمعها الكاهن خلط معها تسعاً وتسعين كذبة، فإذا وقع الأمر أو جزء الأمر كما وقع قال في الناس: أليس قد قال كذا وكذا، فينظرون إلى هذا الجزء من المائة ويغضون الطرف عن كذباته التسعة والتسعين، فهذا كان من أمر الجاهلية، فلهذا قال: { يرقون فيه } يعني يزيدون فيه الكذب، فهذه أليق بالسياق وبفهم الشُرَّاح. نعم.